تخطئة الصواب

الأستاذ عبد الحق فاضل

(الدار البيضاء)

كنت قرات في صباي في احد الكتب القديمة ان قولك (اسميت الشيء) افصح من قولك (سميته). ففرحت بهذه اللقطة استفدتها من ذلك الكتاب ، ودأبت على القول : اسماه ، واسموه ، وهو يسمي ـ بتسكين السين .. وصرت احور عباراتي في دروس الانشاء لكي اجد المجال فيها لاستعمال هذه الصيغ ، الفصحى على قول ذلك الكتاب .

ثم اتفق اني قرات في كتاب آخر ان قولك (أسميته) خطأ وان الصواب (سميته) بالتشديد ، فتعجبت وتحيرت .

ثم اطلعت مع الزمن على مجادلات بعض اللغويين ومهاتراتهم وافتئاتهم على اللغة ، وفرضهم على الخلق آراءا خلافية ، وتحريمهم اخرى جوازية ، وتسفيه بعضهم بعضا لمجرد المخالفة والمناكدة .

فتعلمت من ذلك ان الفصيح ما تكلم به فصحاء الناس ، بصريا كان مذهبه ام كوفيا ، ومقبولا عند بعض العلماء ام مرفوضا ما دام مقبولا عند الآخرين . اي اني اخذت بالقاعدة الدينية : يسر ولا تعسر .

وزادتني دراسة اللغة خبرا ، فتبين لي ان ما نسميه كلام العرب ، او العربية الفصحى ، انما هو اللغة التي دونها لنا المدونون ، اي لغة الجاهلية ، وان هذه اللغة لم تصلنا الا بعد ان طرات عليها تطورات وتحويرات في كل جيل ماض . واننا لو اطلعنا على اللغة التي تكلم بها القوم قبل الاسلام ببضعة قرون لوجدنا ان اختلافاتها عن اللغة الجاهلية التي وصلتنا غير قليلة . بل ان الاختلافات كانت كثيرة حتى عند ظهور الاسلام بين قبيلة وقبيلة في بعض التعابير مما سبب سوء التفاهم احيانا والفواجع احيانا ، مما دونه لنا الاسلاف .

واذا اعتبرنا ان الاقدم افصح من الجديد المستحدث فقد ارتنا دراساتنا الترسيسية ان بعض الالفاظ التي نسميها عامية اقدم من نظائرها الفصحى. اي افصح : وبعبارة اغرب ان بعض الالفاظ الفصحى مولدة او دارجة بالنسبة الى الالفاظ المسماة مولدة او دارجة .

وصفوة القول ان اللغة كائن حي متطور، لا يمكن ان يقف تطوره من حال الى حال الا بموته . وما دامت الاجيال الجاهلية قد استعملت حقها في التحوير والتطوير عفويا فمن حق كل جيل جاهل او عالم ان يستعمل حقه في ذلك عفويا وعمديا . ومن يقرا علم التعني (Semantics) (1) يعرف تاثير الاطفال والخدم والدهماء في تطوير اللغة جيلا بعد جيل ـ بالاضافة الى الشعراء والبلغاء .

وبينما هذا هكذا اذا بفئة من الناس يخطئوننا كلما تكلمنا ـ بحجة من الحجج المعجمية الواهنة ،

(1) اي علم دلالة الالفاظ او تطور المعاني . نسميه « التعني » من المعنى لا من العناء .

ويقترحون علينا بدلا من التعابير المستحدثة التي ترد على السنتنا تعابير اخرى لا ندري من اين جاؤوا بها، وهي ايضا مستحدثة ، من عند انفسهم ، وليس ثمة ما يرجحها على المستحدثات التي يخطئونها . بل ان بعضهم يخطيء صوابا صراحا ليفرض بدلا منه خطأ صراحا .

نفس الشيء :

بعثت ذات مرة مقالا الى مجلة معروفة وردت فيه هذه العبارة : « .. لصدر عنه نفس التصرف الذي صدر عنه .. ولسارت القصة .. الى نفس النهاية المحتومة » .

فما كان من المصحح الهمام الا ان قلب العبارة فجعل عاليها سافلها فصارت هكذا : « .. لصدر عنه التصرف نفسه الذي صدر عنه .. ولسارت القصة .. الى النهاية المحتومة نفسها » .

ولكان حذف هذه الفقرة من المقال احب الي من عرضها على انظار القراء بهذا السبك المضطرب القبيح .

لقد اعتبر المصحح ان الخطأ في عبارتي من الوضوح والبداهة بحيث يحق له ، بل يجب عليه ، ان يتطاول بقلمه فيصححه .

نعم ، كثيرا ما قيل لي ان (نفس الشيء) خطأ وان الصواب ان اقول (الشيء نفسه) . فاذا سالتهم عن السبب قالوا ان (نفسه) بدل من (الشيء) في الاعراب . فعندها اقول لهم ان ورودها (بدلا) في هذه الجملة لا يعني انها يجب ان تستعمل بدلا في كل جملة ولا يجوز استعمالها مضافة الى (الشيء) ايضا .. فان كون (متردم) مثلا مجرورا في قول عنترة العبسي « هل غادر الشعراء من متردم » لا يعني اننا لا يحق لنا ان نورد الكلمة مفعولا به فنقول – مع احترامنا للوزن – «هل غادر الشعراء متردما» .. وان كون (غفورا) اسما لكان في الآية « كان الله غفورا رحيما » لا يعني انه لا يجوز ايرادها خبرا (لان) في آية اخرى « ان الله غفور رحيم » .

ولا افهم كيف لا يجوز في منطقهم اضافة (نفس) الى (الشيء) ويجوز اضافتها الى الضمير التابع له (الهاء)!

ويقولون – وبالعجب – ان (نفس الشيء) لم ترد في كلام العرب ، فكنت اجيبهم ان كانت لم ترد في كلام العرب سابقا فقد آن لها ان ترد منذ اليوم ، فان تعبير (نفس الشيء) له استعمالاته وتعبير (الشيء نفسه) له استعمالاته .

ولست اعلم كيف انتشرت هذه الخرعبلة هذا الانتشار من مشرق العالم العربي الى مغربه ، فاصبح حتى المتمرسون من الكتاب يتجنبون على نحو واضح استعمال تعبير (نفس الشيء) في كتاباتهم ، ويقولون (الشيء نفسه) بدلا منه بالرغم مما في ذلك من ركاكة وتعمل احيانا .

انا شخصيا كنت مصرا على استعمال (نفس الشيء) حيثما استحسنت ذلك بصرف النظر عن ورودها او عدم ورودها في لغة العرب . لكن اتفق منذ مدة اعوام ان ابديت رايي هذا لبعض الاصدقاء فقام احدهم – صاحب الدار الذي كنا في زيارته – الى المعجم ، واذا القول بعدم ورودها في لغة العرب مكذوب من اساسه . وقد ضرب المعجم مثلا لاستعمالها بقوله « نفس الجبل مقابلي ».

فكيف حدث ان انتشرت هذه الازعومة هذا الانتشار بحيث صار يعتبر كل ما يخالفها خطأ ؟ لست ادري . لكن الذي ادريه ان الكثير من التخطئات لا مبرر له ، وما عليك عندما يخطئونك الا ان تتناول المعجم عند وصولك الدار . وسترى احيانا ان مخطئك هو المخطيء ، او ان المسالة جوازية يصح فيها الوجهان ، او اكثر من الوجهين !

اختلف شاعران ذات مرة في كلمة (الوداد) وردت في شعر احدهما ونطقها بكسر الواو فقال الآخر ان الصواب نطقها بضمه . فسالاني ان احكم بينهما ، فضحكت وقلت : الحقيقة اني كنت اظن الصواب نطقها بفتح الواو ! ورجعنا الى المعجم فاذا بها يصح نطقها بفتح الواو وضمه وكسره جميعا ..

مهمة ام هامة ؟

وسترى ان مراجعة المعجم مفيدة دائما ، ان لم تكن في الرد على معارضك ففي تاييد اعتراضه وتصحيح خطئك ان كنت مخطئا حقا .

قال لي احدهم قبل بضع سنوات ان (المهم) خطأ وان الصواب هو (الهام) ، وعلى هذا لا يقال : ذهب فلان في مهمة بل في هامة !

لكن تعبير (همه الامر) يعني اقلقه واحزنه ، او احزنه حتى اذابه ، ومن ثم صار (الهم) يعني الدوبان ـ حتى ذوبان الثلج . واما (اهمه الامر) فيعني اقلقه واحزنه ، ومن هنا جاء قولهم (اهمه الامر حتى همه) اي احزنه حتى اذابه . ومن معنى القلق قيل (اهمه الامر فاهتم به) ، وهكذا نشأت صيغ الاهتمام والهمة والمهمة ثم الاهمية .

واذا كان صاحبي قد راجع معجما (مهما) بعد افتراقنا فقد صحح رأيه ، والا فهو لا يزال يظن ان رأيي في حاجة الى تصحيح .

على ان (المهم والمهمة) قد صدر الحكم ببراءتهما ورفع الحظر عنهما اخيرا ، فقد سمعت من احد اساتذة العربية من انصار (الهام والهامة) يقول ان تخطئة (المهم والمهمة) خطأ ، وان الكتاب اخذوا يستعملونهما . ولا ندري من الذي حرم ولا من الذي حلل . الا ان الواضح هو أن المسألة كانت تنتهي على خير لو روجع المعجم من اول الامر .

لكن التحذير الذي لا نجد بدا من ذكره هنا هو الا تتخذ من المعاجم العصرية المختصرة حجة دامغة ، فكثيرا ما تهمل هذه المعاجم بعض معاني الكلمة او اشتقاقاتها ، بالاضافة الى انها لا تخلو من اغلاط لغوية ومطبعية .

استهدف :

من احسن ما توصل اليه القدامى من اللغويين العقلانيين قولهم ان ما قيس على كلام العرب فهو منه .

فالمعجم اولا لا يذكر للكلمة جميع صورها الاشتقاقية بل ما روي منها عن العرب فقط أي ما سمعه اللغويون منهم منها ، ولابد ان ما لم يسمعوه كثير . فاذا لم نجد في المعجم لاحدى الكلمات صيغة الفاعل او المفعول او الانفعال او التفعل .. فهذا لا يعني ان العرب لم يستعملوا هذه الصيغ من تلك الكلمة، وانما يعني ان اللغويين لم يسمعوها وحسب. ثانيا : حتى لو صح ان العرب لم يستعملوا بعض الصيغ لما كان معنى ذلك اننا لا يجوز لنا ان نستعملها بالمعنى القياسي الذي تدل عليه اوزان تلك الصيغ ، فلكل جيل حاجاته اللغوية ومحسناته التعبيرية .

ثالثا : انه ما من لغوي معاصر ـ مهما يكن معجميا ـ لا يستعمل بعض التعابير المستحدثة التي لم ترد على السنة العرب الاقدمين او وردت على السنتهم في غير معانيها الحاضرة ، مثل : التشريع والانتاج والفنان .. وبعضها مغلوط اصلا مثل : المشروع (مفرد المشاريع) والثلاجة والمفكرة والحكومة والدولة والدوائر (الحكومية) والمرسوم والرسمي والتشريفات والتقارير ومحرر (الجريدة)..

لقد بدا للمحدثين ذات يوم ان يقولوا (استهدف الامر) بمعنى رمي اليه او قصده ، غير ان هذا التعبير القياسي السائغ اختفى وحل محله (هدف الى الامر) .

وحجة الذين يخطئون (استهدف) هي ان العرب انما قالوا (استهدف الشيء) بمعنى ارتفع ، و (استهدف له الشيء بمعنى انتصب،لكنهم لم يقولوا، اي اننا لا نعلم انهم قالوا (استهدف الشيء) بمعنى نصبه هدفا او جعله نصب عينيه .

وجوابنا على هذا هو ان العرب لم تقل (هدف اليه) ايضا بهذا المعنى . فاذا كانت المسألة مسألة تحريم ما لم يرد في المعجم فان تعبير (هدف اليه) حرام مثل (استهدفه) . بل هو احرم لانه مؤلف من كلمتين بدلا من كلمة واحدة . وان كانت المسألة مسألة قياس واجتهاد فان الاجتهاد والقياس يعضدان صيغة (استهدفه) لان العرب قالوا (استخدمه) بمعنى اتخذه خادما ، و (استعمله) بمعنى اتخذه عاملا ، و (استكتبه) بمعنى اتخذه كاتبا ، و (استوزره) بمعنى اتخذه وزيرا .. فلماذا لا يحق للعرب المعاصرين وحدهم ان يقولوا (استهدفه) بمعنى اتخذه هدفا ؟

الشارع الرئيس :

سألني احدهم : هل الصواب نطق (العلاقات الدولية) بفتح الدال نسبة الى الدولة ام بضمه نسبة الى الدول ؟ فقلت له : كلاهما خطأ وكلاهما صواب .

والذي اعنيه ان النسبة الى الدولة خطأ عقلانيا، لان المعنى المقصود هو العلاقات بين الدول . واما النسبة الى الدول فخطأ نحويا . فمعلوم ان من مقتضيات القاعدة العربية (الجاهلية) اعادة صيغة الجمع الى الافراد وصيغة فعيل الى (فعل) ـ بفتحتين ـ قبل اضافة ياء النسبة . ففي النسبة الى القبائل يقولون (قبلي) بفتح الباء ، والى الربيع يقولون (ربعي) بفتحها كذلك .

وقد قال لي احد الاساتذة ذات يوم وهو يقرأ شيئا من كتاباتي «اسمح لي ان اصحح هذه الكلمة».

قلت « أية كلمة ؟ » .. قال « كلمةبديهي ، فانه يقال طبيعي من الطبيعة شذوذا لكن لا يقال بديهي من البديهة ، فالصواب بدهي » . قلت له « ان اهل الاختصاص من العرب في عصور الثقافة تاليفا وترجمة ـ اي العهد العباسي ـ قالوا بديهي كما قالوا طبيعي ، فان كانوا مخطئين فيعجبني ان اخطيء معهم » .

والواقع ان العرب القدامى نسبوا الى صيغة فعيل ايضا في بعض الاحوال دون ان يجردوها من الياء ، في مثل قولهم (الخرفي) و (الخريفي) دون تفريق نسبة الى الخريف ، و (المدني) للانسان و (المديني) للطائر ونحوه نسبة الى المدينة .

اما الجمع فلست ادري كيف استغنى العرب الاقدمون عن النسبة اليه بوجه عام ، لكنني ادري انهم كانوا اذا دعت الحاجة يخرقون هذه القاعدة غير الذهبية عند خشية الالتباس . ومن ذلك قولهم (انصاري) و(مدائني) نسبة الى الانصار والمدائن . بل انهم نسبوا الى المثنى ايضا فقالوا (بحراني) نسبة الى البحرين . (وهذه من المفارقات اللغوية فان اسم البحرين ينطق بالياء دائما والبحراني بالالف دائما) . وقياسا على هذا نقترح النسبة الى بلاد الرافدين ـ العراق القديم ـ بصيغة (رافداني) بدلا من القول انه (يمت الى ارض الرافدين) .

فاذا كان عرب الجاهلية ، اصحاب القاعدة ، انفسهم قد خرجوا على قاعدتهم عند اقتضاء الحال فما بالنا نحن نتحرج من ان نحذو حذوهم وحاجاتنا اوسع من حاجاتهم وكلامنا اكثر تعقيدا وتعرضا للالتباس من كلامهم ؟

ان قاعدتهم الحقيقية هي الشذوذ عن القاعدة عند الضرورة .

كثيرا ما يصادفنا تعبير (الشارع الرئيس) بدل (الرئيسي) . والذي دفعهم الى هذا فيما يظهر هو انهم لم يستطيعوا الحاق ياء النسبة بكلمة (الرئيس) بعد تجريدها من الياء ، لانها تصبح عندئذ (الراسي) ومعناها يلتبس بمعني العمودي ضد الافقي . فللخروج من هذا المازق صرفوا النظر عن ياء النسبة وقالوا (الشارع الرئيس) و (الفكرة الرئيسة) و (الامور الرئيسة) .. كانما هنالك رؤساء ومرؤوسون بين الشوارع والاشياء كما بين البشر . اي اننا نضحي بالمعنى ونجافي المنطق في سبيل التمسك بقاعدة غير لازبة .

... افليس الامثل ان نقتدي بعرب الجاهلية ونقول: الشارع الرئيسي والفكرة الرئيسية ، قياسا على المديني والخريفي .. ونستريح ؟ ام نحن اشد جاهلية من الجاهليين ؟

اذا فرض علينا ان نعيد كل كلمة الى اصلها المجرد قبل ان نلحق بها ياء النسبة كان علينا ان ننسب الى كل من (الام) و (الامة) و(الامم) بكلمة واحدة هي (الامي) . لكن المعاصرين حلوا بعض المشكلة يوم قالوا (الامعي) نسبة الى الامم ، ولا نستبعد ان يأتي جيل اقل اكتراثا بالقواعد التقليدية منا فيقول (الامتي) نسبة الى الامة ! .. كما يقول بعضهم اليوم (الحياتي) نسبة الى الحياة بدلا من (الحيوي) التي صارت تعني الجوهري والضروري.

اولم يقل العرب الاقدمون : مدني ومدبني ومدائني ؟

* * *

هذا نقوله مع الاعتذار الى الاساتذة الذين ورد ذكر بعضهم تنويها في هذه الكلمة ؛ فاننا لا نقصد الطعن باحد بالالماع الى مناقشات لغوية جرت لنا مع بعضهم ، وانما هي آراء لنا نظنها صائبة ونظن نشرها اصبح من الضرورات اللغوية ؛ لتصحيح موقف الكتاب من الكلمات الشائعة التي تصدينا لها ومن امثالها اولا ، ولاظهار مذهبنا في الاخذ بالقياس وضرورة الرجوع الى المعجم عند الاشتباه ومدى التزامنا بما ينص عليه المعجم ثانيا . والحكم للقاريء وللزمان على كل حال .